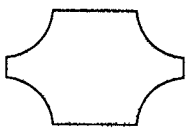

الجـدار

محمود سعيد(*)

في البدء كان نباحه منتظماً كدقات الساعة الرتيبة، يقتحم الأذن وحيداً منفرداً في ظلام الليل الساكن. ثم أخذ الصوت يضعف، يضطرب، يتحشرج، يكاد يختنق، يتلاشى، ثم لا يلبث أن ينفجر صرخةَ ألم مدماة، عويلاً طويلاً رقيقاً يتخبّط في مسار الآلام والفناء.

ظنّه حميد حلماً كئيباً، استيقظ على تواصله، بيد أنّه بدا حقيقة مؤلمة أقضّت مضجعه حتى استحال مع الظلام كابوساً، شوكة في الفراش. تقلّب في سريره، تعلق بأهداب النوم عبثاً، فتح عينيه. من أين يأتي الصوت؟ لماذا يئنّ؟ يتحشرج؟ في الطريق؟ عند الجيران؟ أين؟ أمه وأخوه غارقان في النوم. نهض على رؤوس الأصابع، جلس في الرقعة الصغيرة بين الباب والغرفة، أراد أن يقرأ، فتح كتاباً، نظر إلى صفحته: ألغاز، طلاسم، لم يفهم شيئاً، الكتاب صفحة من الصفيح تعكس ضوءاً صلباً كالدبابيس. رجع الى الفراش، تقلّب مع صوت الجرو، ظلّ يتقلّب .. ثم .. متى نام؟ لم يدر. لكنه يعرف أنّه استيقظ صباحاً مع الآخرين ونثار حديديّ ساخن يحرق جفنيه.

كان الجوّ صحواً، والنسيم يتمطّى كمهر في عنفوانه، وشمس الصباح تغمر «الطارقة» الصغيرة بدفء لذيذ يدغدغه هواء ليّن بارد لم يفلح في تهدئة أعصاب حميد. وقد انفجر حينما اطّلَعَ على نتيجة امتحان أخيه مجيد، وصرخ بصوت مجنون:

– ألف مرة قلت لك يجب أن تحصل على معدّل يمكنك من الدراسة في قسم داخلي خارج البصرة .. ألم نتفق على ذلك؟

– نعم.

– ألم أعرض عليك أن أجيئك بالمدرّسين؟

– نعم.

– أين المعدّل المطلوب إذن؟

وبينما كان يتفجّر براكين محرقة، كان أخوه مجيد يتضاءل وينكمش ويصغر حتى لم يبق من ملامح وجهه سوى إهاب أسمر تتآكل في وجنتيه الشاحبتين بقع النخالة الخضراء المكمودة. ارتجفت عيناه تحت ثقل ورقة النتيجة. لمعت في عينيه دمعتان طريتان بينما اندفعت امرأة في الستين، ممتلئة، غارقة في السواد، تغالب بصعوبة التهابَ المفاصل في رجلها اليسرى، هتفت وهي تنظر في عيني مجيد:

– رسبت؟ يا ويلي ...

وَجَدَ مجيد لسانه أخيراً. هتف بصوت مختنق بالبكاء:

– أنا من المتفوقين الأوائل الثلاثة في المدرسة.

وبدون شعور مدّت يدها إلى بطنها كمن صعقته موجة مرض مفاجئ، اتكأت على الجدار البارد، ثم أقعت على الأرض وقد تغضن وجهها، لهثت:

– الحمد لله .. تعال أقبّلك.

ركض الإثنان نحوها، هتف حميد:

– مابك؟

ردّدت بضعف:

– لا شيء ..

بدأ الكلب يعوي من جديد، كأنه يحتضر. انتفض حميد، رانت لحظة صمت تدحرجت فيه دمعتان على خدّ الأم. تحشرج صوت الكلب المحتضر من جديد، فقد حميد أعصابه:

– أين هذا الكلب؟

لمعت عينا أخيه الصفراوان:

– في بيت اللواء.

أشار الى حديقة الجيران. جدار بعلوّ مترين يفصلها عنهم. حاول أن يهدئ أعصابه لكن موجة عارمة من الداخل جعلته يغضب من جديد، تهدج صوته في تحسر وانسحاق، طغى على النبرة مسحة عتاب يائس:

– قلت لك إنها فرصتي الأخيرة لكي أعيش حياتي، أفهمتك كل ظروفي، لا أستطيع الدراسة هنا، يقف العمر عائقاً، شعرت حينما جاءني القبول من الخارج كأني ولدت من جديد، فرصتي الوحيدة كي أكمل دراستي. أعددت كل شيء. إذا قُبِلتْ أنت في القسم الداخلي ستعيش الوالدة مع أحد أخويك إلى أن أنهي دراستي.

وكانت شابة في الثلاثين قد دخلت من دون أن يتنبّه إليها أحد. واندفع من يديها طفل في الرابعة، أسمر، عيناه واسعتان، احمرتَ أرنبة أنفه من برد الصباح، فاحتضن ركبتي حميد، ، وأدار وجهه إلى أمه وعيناه

---

* كاتب عراقيّ يقيم في الإمارات العربية المتحدة. نال عام ١٩٩٤ جائزة أفضل رواية عراقية عن رواية **زنقة بن بركة** (تُنظر مراجعة موسى كريدي في باب «مراجعات كتب» من هذا العدد).

السوداوان تلمعان. تساءلت الشابة بصوت ملتاع وهي توجه نظراتها إلى الشاب الصغير:

– ما هذا الوجوم؟ صديقك سعد قال لي في الطريق إنك نجحت!

قاطعها مجيد مؤكداً:

– نجحتُ بالفعل، لكني لا أستطيع أن أذهب إلى قسم داخلي في بغداد.

احتجّت:

– ولِم بغداد؟ أدرس هنا.

لمع الشرر في عيني حميد، صرَّ على أسنانه، هتف:

– عمري خمس وثلاثون سنة، يعني لم يبق من شبابي سوى عشر سنين في الأكثر،ألا يحق لي أن أعيش بضع سنوات كباقي الناس؟ منذ أن كان عمر أخيك هذا أربعة أشهر وأنا أعولكم، أوصلتُ إخوتك الثلاثة إلى غاياتهم، أوقفتهم على أرجلهم، زوّجتك أنت، حملتُ أمك على رأسي كل هذه السنين الطويلة، وها أنذا أريد أن أتنفّس، أفتّش عن مكان لي، أعدّ شيئاً لمستقبلي، أليس هذا من حقي؟ ألست بشراً؟

وضع وجهه بين يديه. اتكأ على الجدار. خيّل إليه أنه فقد ملامحه البشرية، أصبح تمثالاً لليأس مجسماً. حتى لسانه انْحبس. أراد أن يقول لهم إنه لم يكن من هواة الأحلام، يكفيه حلم واحد طرّز بالآمال سنوات الكدح الطويلات منذ أن سقطت التركة الضخمة على رأسه: أم وثلاثة أخوة وأخت. لم يرَ أي قصر في الخيال، فقط عشرة دنانير، كل شهر يدخرها في المصرف. حرم نفسه من كل مباهج الشباب والحياة .. حرم نفسه من قنينة البيرة، من علبة السكاير، من طعم المرطبات، من الملبس الجيد، مِن .. من .. كان يحسب الحساب لكل فلس كي يعيل هذا القطيع العاقّ الجاحد، الناكر للجميل. كَمُلَ المبلغ، يستطيع الآن أن يسافر، يكمل دراسته، يغسل القلب من وعثاء الكدّ والقهر ليرجع في الأربعين بمؤهل يمكنه من الزواج. أهذا وهم؟ ربما! أيجوز أن يختلق هذه الكذبة كي لا يغرقه اليأس؟ الطبيب والضابط اللذان «بذرهما» أبوه أعالهما هو، أوصلهما، لكنهما انسحبا بخبث وإثم، انسلاّ كما تنسلّ الشعرة من العجين. لماذا يعاني وحده؟ كلاهما تزوّجا، نقلا نفسيهما بعيداً متهربين من أية مسؤولية كالمجرمين، لا بل إنَّ المجرم أشرف منهما فهو يرتكب جرماً يحاسب عليه القانون، أما هما فيعلمان أن لا قانون يحاسب على مثل هذه الجرائم. مِمَّ يخافان؟ المادة أعمتهما. لا يريدان أن يكدر عيشهما شبح أيّ فرد من العائلة. هو وحده يكافح في سبيل تحقيق حلم يسَّره، حَققه لغيره .. ها هو الحلم يموت في صدره، يتضخم ميتاً كالجثة المتفسخة.

– لن تذهب .. لن تكمل دراستك.

فاجأته بشرى بجدّ وتشنّج. طافت موجة شعاع ملتهب في عينيها، حدق فيها باستغراب. كيف تجرأت؟

– نعم .. لن تذهب. نحن نحتاجك.

– أأنا أخوكم الوحيد؟

– نعم .. أنت الوحيد.

– والآخران.؟

– كلبان .. كلبان .. يومان مكثت عند أحمد .. يملك كل الدنيا، لم يتحملني أنا وزوجي المريض يومين. يدخل معبس الوجه ويخرج معبس الوجه، كالقرد. أهذا أخ؟ والثاني ذلك الضابط أحقر وأتعس. غريب يزور غريباً في المستشفى. لكن لم يزرنا أحد. مكثنا شهراً وكأننا مقطوعون من شجرة. أنت أخونا الوحيد. أنت أبونا وأمنا وملجأنا. لم نعرف سواك. ولا نريد أن نعرف. باتوا من عالم غير عالمنا. أرقى منا. لا يريدوننا ولا نريدهم. ستبقى أنت لتعيش معنا. تساعدنا. أنظر إلى ابني هذا .. ماذا يرتدي؟ هذه الدشداشة الوحيدة التي عنده مرتقة في عشرين مكاناً. سيأتي العيد بعد أيام وليس عندنا ما نضعه على جسده. أتعلم أننا لم نذق اللحم منذ شهر؟

طفقت تبكي بحرقة. بينما كانت أمها تنشج بصمت. أضافت:

– الآن جئت لتنقذني. لا بد أن تفعل. لن أذهب؟ من يصغي إليّ؟ من يساعدني إذا لم تفعل أنت؟

قاطع بنفاد صبر:

– ماذا تريدين أنت الأخرى؟

– أريد رأسمالاً يعمل به زوجي. خدمة عشر سنوات ذهبت هكذا من دون أي فلس مكافأة. الدكان التي كنّا سنؤجرها جاء عميد متقاعد ورفع «خلوَّها» الى ستمائة دينار، من مئة الى ستمائة. لا نستطيع أن نؤجر غيرها. إنها الأقرب الى الدار. وهو مريض شُلت رجله منذ أن أطلقوه. الى من نتوجه؟

لطف نبرة حديثه:

– أأنا الذي طلبت من زوجك أن يكون بطلاً؟

– لا .. لست أنت. لكنك كنت معجباً بشجاعته وصفاء تفكيره ووعيه وثباته، كنت تفضله على إخوتك.

نظرت إليها أمها مشجعة، قاطعت:

– كلميه عن سعاد.

هتف متضايقاً:

– غير مرة قلت لكم لن أتزوج الآن. إذا لم أحسن موردي فلا زواج.

لكن الأخت قاطعته وكأنها لم تسمعه:

– إذن هُدى.

كانت قد أعدت وأُمّها قائمة بأسماء فتيات تعتقدان أنهن مناسبات له، مع زركشة مفتعلة بأوصافهن. كانتا تريدان أن تربطاه الى المكان الذي ترغب أمه أن تمكث فيه حتى يحين الأجل. لكنه هتف من دون أن يكبح جماح نفسه:

– أي زواج؟ أي أطفال؟ أي معيشة؟ أي شيء يحققه راتب الإعدادية الزهيد؟ أأضيف إلى جيوش الجياع أفواهاً أخرى؟

مدَّ يَدَهُ الى ابنها:

– أنظري.

ثم الى الدار الصغيرة ذات الغرفة اليتيمة، وانفجرت مرارته أنيناً:

– أهنا سأتزوج؟ وأين ينام هذانِ؟ إذا لم أسافر فلا زواج حتى الموت .. الزواج مستحيل.

– لماذا مستحيل؟ أكُتب على الفقير أن لا يتزوج؟ ما الفرق بين حياتنا وحياة الضباط والأطباء؟ الحياة نفسها. بدل الحصيرة سجادة إيرانية. وبدل اللحم باقلاء أو حمص.

نوَّح الكلب من جديد كأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة. أي روح طويلة عند هذا الحيوان؟ لو يموت فقط لينهي هذه الموسيقى الجنائزية، موسيقى مستقبله المتسربل بالقنوط، بالموت الذي بدأ يدبّ في عروقه.

أدرك أخوه أنه يفكر بالكلب. قال:

– البارحة قتل أولاد الضابط كلباً بالحجارة قرب بابنا.

أراد أن يقول له: «كما تقتلوني أنتم» لكنه لم يفعل. سأله:

– أتعرف مكانه؟

– من؟

– الكلب الذي ينبح منذ البارحة.

أشار مجيد إلى حديقة الجيران:

– لا بد أنه هنا.

من بين أغصان الجنينة الحمراء أطلا على حديقة الجار الواسعة. شجيرات الورد تتفتق عن ورود بحجم البطيخة الصغيرة. ألوان تتدرج في جاذبية ساحرة عمقاً وانفتاحاً. ياسمين. زنبق. بنفسج. قرنفل أبيض ووردي وأحمر وناري وأدكن الحمرة أقرب للسواد، دوالي عنب، مساحة تعادل عشرة أضعاف مساحة داره الكشتبانية فقط للزهور ماعدا الثيل، ماعدا الممرات، ماعدا ...

أنْسته الحديقة نفسه. ترك نظره يتسكع متلذذاً بجمال الورد، ألوانه البهيجة، ستائر الآس المقصوص بعناية، كالجدران. بساط الزبرجد الأخضر يحتضن فسقية من الموزاييك الأزرق. كيف ينجح بعض الناس في خلق سعادتهم الخاصة بهم؟!

– ذاك هو.

قال له:

– انزلْ وأنقذه.

قاطعت بشرى:

– لا .. لن ينزل أحد .. منذ أن لاح شبح في الحديقة قبل ثلاثة أشهر أقسم اللواء أن يقتل كل من يراه يحوم حول البيت. أعطى أوامر بإطلاق النار الى الحراس .. فكيف بالحديقة؟ أغلب الظن أنّه لم يذهب إلى مقره بعد.

حدق حميد مفكراً بحالة الكلب المشدود من رقبته الى شجيرة ورد أصفر، وقد تجمّدت الدماء على أنفه الصغير. كان شعره كالزغب الخفيف، أشبه بقطيفة أسطورية سمراء تميل إلى صفرة باهتة. توجّه الى المطبخ. جاء بسكين صغيرة. ومن دون تردّد قفز الى حديقة الجيران، بينما كبتت أخته صرخة كادت تفلت منها، وردد أخوه الصغير من دون شعور:

– سيقتلك إن رآك.

كانت الأم تعدّ الشاي حينما شاهدت الكلب. ابتسمت مؤنّبة، لم تقل شيئاً. لكنها هتفت بألم:

– من أين هذا الدم؟

عندما رفع الكلب من تحت الشجرة الشائكة أحس بخدش. لكنه الآن رأى دماً غزيراً لم يتوقّعه. في حمية الحركة تمزّق ردن الدشداشة. وها هو يصطبغ بدمٍ قانٍ. ربَّت على كومة الفراء الطرية المستكينة بأمان أمامه. لم يحاول الجرو الإفلات. أغمض عينيه، لكنه عندما رأى الحليب أمامه في إناء صغير انتفض، وأخذ يلعقه. استعاد طبعه كأنه نسي آلامه وجروحه. أخذ يرقّص ذيله بحركات سعيدة مرحة. لم ينبح. اكتفى بعد أن انتهى الحليب باستنشاق نفس عميق صعب كالحشرجة أعقبها باستكانة أفضت الى نوم عميق.

الإمارات العربية المتحدة